إرشاد الألباب إلى ما في قصة ضيف إبراهيم من الآداب

د. سامي رفعت الأشقر

أستاذ التفسير وعلوم القرآن الكريم المساعد

قسم اللغة العربية وآدابها كلية الآداب جامعة السويس

ملخص البحث:

يدور هذا البحث حول قصة ضيف إبراهيم – عليه السلام – التي خلَّد القرآن ذكرها في أكثر من موضع؛ حيث احتوت على جملة آداب تعلم المسلم ما كان من عظيم كرم إبراهيم، وجزيل إحسانه إلى أضيافه، فشرعت في جمع آداب تلك القصة المباركة في هذا البحث الذي وسمته (بإرشاد الألباب إلى ما في قصة ضيف إبراهيم من الآداب) ، وموضوعه جملة الآداب التي يجب أن يتحلى بها المضيف في استقبال الضيف ، بما يتناسب مع مكانته وأهليته ؛ ويأتي ذلك في إطار التأكيد على معنى رقي الإسلام، وسبق القرآن الكريم غيره من التشريعات والقوانين البشرية في باب مكارم الأخلاق، وحث المجتمع المسلم على أن يتخلق بهذه الآداب، مستخلصًا إياها من الكتاب العزيز والسنة المشرفة؛ ليلتزم بها الفرد المسلم فيكون داعية حسنة لهذا الدين بقيمه وأخلاقه، وسلوكه ومبادئه .

الكلمات المفتاحية: الآداب – الضيافة – الإكرام – الشريعة.

مقدمة البحث:

الحمد لله الذي أنزل القرآن بلغة العرب، وصلى الله على نبينا محمد أفضل من نطق وخطب، وعلى آله وأصحابه ومن اتبعهم بإحسان، ورفعنا معهم في الدار التي لا وصب فيها ولا نصب.

وبعد:

فإن القرآن الكريم قد جمع من محاسن الاعتقاد ، وكرائم الأخلاق ما يصلح به حال الناس في الدنيا والآخرة ، وكان من بين أساليب غرس القيم والآداب في القرآن الكريم ما ورد فيه من القصص القرآني، الذي وصفه مَن أنزله بأحسن القصص؛ ومن ثم فقد حوى جملة من المنافع الجمة والفوائد التامة مما يعجز القلم

عن حصرها، ومن ذلك غناه بالمواعظ والحكم، والأصول العقدية، والتوجيهات الأخلاقية، والتربية السلوكية، لتكون استفادة للأمة المسلمة ، ولذا حُقَّ له أن يكون عبرة لأولي الألباب .

وكما هو مقرر عند علماء الأصول فإن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يخالف أصلاً من أصول ديننا، أو يصرح شرعنا بنسخه، ويبين خطأه أو حرمته ، بيد أن بعض الأصوليين قد خصصوا هذا الاتباع والإلزام بشرع إبراهيم – عليه السلام – دون غيره من الشرائع، وهذا ما فصله الأصوليون في كتبهم، ومنهم أبو إسحاق الفيروز بادي حين قال: (شرع من قبلنا شرع لنا إلا ما ثبت نسخه، وقال بعض أصحابنا: شرع من قبلنا ليس بشرع لنا، ومنهم من قال: شرع إبراهيم خاصة شرع لنا وما سواه ليس بشرع لنا، وعلى أن الظاهر أن المصلحة لنا فيما شرع لهم ، إذ لو كانت المصلحة لنا في غيره لنسخ ذلك؛ ولما لم ينسخ ذلك دل على أننا وهم في المصلحة سواء) [1] .

وقد توافرت الأدلة من السنة النبوية الغراء على استحسان النبي – صلى الله عليه وسلم – وإعجابه بأخلاق ومواقف إخوانه من الأنبياء والمرسلين: كموسى، ويوسف، وأبى الأنبياء إبراهيم – عليهم وعلى نبينا الصلاة والتسليم – .

وكان من بين ما توقفت عنده ، تلك القصة الفريدة التي بلغت غاية الكمال في الجود والإحسان إلى الضيفان، وأعني بها قصة ضيف إبراهيم – عليه السلام – التي خلَّد القرآن ذكرها في أكثر من موضع؛ حيث احتوت على جملة آداب تعلم المسلم ما كان من عظيم كرم إبراهيم، وجزيل إحسانه إلى أضيافه، ولم أجد – فيما أعلم – من أفرد لتلك الآداب بحثًا مستقلًا، يجمعها مستنبَطَةً من مواضعها في الآيات البينات؛ فشرعت في جمع آداب تلك القصة المباركة في هذا البحث الذي وسمته (بإرشاد الألباب إلى ما في قصة ضيف إبراهيم من الآداب) ، وموضوعه جملة الآداب التي يجب أن يتحلى بها المضيف في استقبال الضيف ، بما يتناسب مع مكانته وأهليته ؛ ويأتي ذلك في

([1]) التبصرة فى أصول الفقه ، إبراهيم بن علي بن يوسف الفيروز آبادي الشيرازي أبو إسحاق ، ص ٢٨٦– ٢٨٧ ، دار الفكر ، دمشق – سوريا ، الطبعة الأولى ، سنة ١٤٠٣هـ .

إطار التأكيد على معنى رقي الإسلام، وسبق القرآن الكريم غيره من التشريعات والقوانين البشرية في باب مكارم الأخلاق، وحث المجتمع المسلم على أن يتخلق بهذه الآداب، مستخلصًا إياها من الكتاب العزيز والسنة المشرفة؛ ليلتزم بها الفرد المسلم فيكون داعية حسنة لهذا الدين بقيمه وأخلاقه، وسلوكه ومبادئه، فإن الدين المعاملة .

والله تعالى نسأل أن يوفقنا لخدمة كتابه الكريم، وتدبر ما فيه من مواعظ وأمثال، والعمل بما فيه من آداب وأخلاق، إنه أكرم مسؤول وأجود مأمول، وهو حسبنا ونعم النصير .

التمهيد:

لا يخفى على أحد حث الإسلام على مكارم الأخلاق وحسن المعاملة؛ حتى جعل حسن التعامل مع الناس من أخص صفات المؤمن، وإكرام الضيفان من أمارات الإيمان؛ مصداقًا لقوله – صلى الله عليه وسلم – :(من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه) [١] ، فمن أكرم الضيف نال خلعة الإيمان ورضا الخالق وحب المخلوقين، قال ابن عبد البر: (أجمع العلماء على مدح مكرم الضيف، والثناء عليه بذلك وأن الضيافة من سنن المرسلين، وأن إبراهيم أول من ضيف الضيف) [٢].

وقد تواترت الأدلة من الكتاب والسنة على عظيم حق الضيف ووجوب إكرامه ، وسبقت الشريعة الغراء ما تعارف عليه الغرب من آداب المعاملة، وتنظيم المائدة، والبشاشة للضيف والترحيب به، وهو ما يُعرف عندهم بالإتيكيت؛ بيد أنه عند المسلم يدخل في باب السنة المباركة واتباع هدي الأنبياء والمرسلين، ومن ثمَّ فإن المسلم مأمور بتدبُّر كلام ربه – جلَّ وعلا – وسنة نبيه – صلى الله عليه وسلم – وتطبيق ما في شريعتنا الغراء من أحكام وآداب لو تخلَّق بها المؤمن لوجد فيها من الخير ومحاسن الأخلاق وتزكية النفوس ما يغنيه عن طلب سواها في شرائع الناس وأعرافهم .

---

(١) صحيح البخاري ، محمد بن إسماعيل البخاري، ، ٨ / ١١ ، كتاب : " الأدب" ، باب: " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره " ، ورقمه : ٦٠١٨ .

(٢) الاستذكار الجامع لمذاهب فقهاء الأمصار، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر ، ص ٣٠٢ ، دار الوعى سنة ١٩٩٣ م .

ومن بين المواقف العظيمة والدروس الجليلة التي ساقها لنا القرآن الكريم في هذا الباب قصة ضيف إبراهيم من الملائكة المكرمين، وكيف استقبلهم أبو الأنبياء – عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام – فأحسن استقبالهم، وبذل لهم غاية الإكرام بما استحق أن يُخلد في أكثر من موضع في الكتاب العزيز، حيث وردت هذه القصة بشيء من التفصيل في سور (هود) ، و (الحجر) ، و (الذاريات) وهو ما سيتعرض له هذا البحث – إن شاء الله تعالى – موضحًا آداب الضيافة في هذه القصة المباركة .

- إشكالات البحث :

تدور إشكالات البحث حول نقطتين أساسيتين، وهما :

الأولى : لم استحق إبراهيم – عليه السلام – أن تُخلد قصته مع أضيافه في القرآن الكريم ؟

الثانية : ما أهم آداب الضيافة التي وردت في تلك القصة ؟

- منهج البحث :

ارتكز البحث على المنهج الاستقرائي الاستنباطي؛ حيث قام باستقراء النصوص القرآنية التي أشارت إلى قصة ضيف إبراهيم – عليه السلام – ، ثم استنباط آداب الضيافة من خلال الآيات القرآنية .

- مصطلحات البحث :

لما كان موضوع البحث مرتكزًا على الضيافة والإكرام ؛ فقد احتاج الباحث إلى إيضاح هذين المصطلحين ، وسنبدأ بمصطلح الضيف فهو محور البحث وعليه عماده .

– مصطلح الضيافة :

الضيف مأخوذ من الجذر اللغوي (ض ى ف) ، قال الجزري : " ضِفتُ الرجل إذا نَزَلت به في ضِيافةٍ ، وأضَفْتُه إذا أنْزَلته ، وتضَّيفُته إذا نَزَلت به وتضيَّفني إذا أنْزَلني) [1] .

(١) النهاية فى غريب الأثر ، أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، ٣ / ٢٣٨ ، المكتبة العلمية – بيروت ، ١٣٩٩هـ.

وقال القرطبي – رحمه الله – : (وسمى الضيف ضيفًا لإضافته إليك ونزوله عليك) [١] ، وفى القاموس الفقهي ورد أن : (الضيف: النازل عند غيره، دعي أو لم يدع ، يستوي فيه المفرد والمذكر لأنه في الأصل مصدر، وفي الكتاب المجيد: ﴿ونبئهم عن ضيف إبراهيم إذ دخلوا عليه فقالوا سلامًا قال إنا منكم وجلون﴾ .

وقد يجمع على الأضياف، والضيوف، والضيفان، والمرأة ضيف وضيفة، وعند المالكية: من نزل عندك لضيق وقتٍ أو جوع ، والمضاف: الدعي ينتسب إلى قوم وليس منهم ، والمضيف الذي يدعو الضيوف، ويقريهم) [٢] .

وهكذا نجد معنى الضيافة تدور حول الدعوة وإجابتها، وحسن الإكرام، ومعاملة الضيف بما يستحقه من بذل وجود وكرم ، وهو خلق من أخلاق الأنبياء والمرسلين ، وأهل المروءة والصالحين .

- مصطلح الإكرام :

الإكرام مأخوذ من الفعل الرباعي (أ ك ر م) ، وهو فعل رباعي لازم متعد بحرف ، يقال: أكرم إكرامًا ، وفى المعجم الوسيط : ("كرم " فلان كرمًا وكرامة : أعطى بسهولة وجاد ؛ فهو كريم، والجمع: كرام وكرماء، وهى كريمة، وجمعها: كرائم ، وجاد بالغيث والأرض : زكا نباتها) [٣]، وقد عرَّف الجرجاني – صاحب التعريفات – الكرم بقوله : (الكرم هو الإعطاء بسهولة، والكريم مَن يوصل النفع بلا عِوض) [٤] .

بيد أن بعض أهل اللغة يفرقون بين الكرم والجود، وهو ما أوضحه أبو على الفارسي في (الفروق اللغوية) حين قال : (يجوز أن يقال الكرم هو: إعطاء الشيء عن طيب نفس قليلًا

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي، ١٠ / ٣٥ ، دار الكتب المصرية ، القاهرة، الطبعة الثانية، سنة ١٣٨٤هـ ،١٩٦٤ م .

(٢) القاموس الفقهي لغة واصطلاحا ، سعدي أبو جيب ، ٢٢٦/١ ، دار الفكر، دمشق – سورية ، الطبعة الثانية ١٤٠٨ هـ ، ١٩٨٨ م .

(٣) المعجم الوسيط ، إبراهيم مصطفى ـ أحمد الزيات وآخرون ، ٧٨٤/٢ ، دار الدعوة ، القاهرة .

(٤) التعريفات ، علي بن محمد الجرجاني، ١ /٢٣٦ ، دار الكتاب العربي، بيروت ، الطبعة الأولى ، سنة ١٤٠٥ هـ.

كان أو كثيرًا، والجود سعة العطاء سواء كان عن طيب نفس أو لا، ومنه سمي المطر الغزير الواسع: جودًا، ويجوز أن يقال : الكرم هو إعطاء من يريد إكرامه وإعزازه ، والجود قد يكون كذلك وقد لا يكون .

أما الفرق بين الجود والكرم فقد قيل فيه : إن الجواد هو الذي يعطي مع السؤال ، والكريم الذي يُعطي من غير سؤال) [١] .

فكأن الكرم أعلى منزلة من الجود، من حيث إن الكريم لا ينتظر سؤالًا، لكن هناك إشكالٌ من حيث كون أن الجود لا يُطلق إلا على العطاء الكثير، بينما الكرم قد يكون كثيرًا أو قليلًا وأرى أن هذا ليس عيبًا في الكرم بل هو نتاج مسارعة الكريم بالعطاء مما في يده من غير ترتيب ولا إعداد، بل حسب الموقف الذي لا ينتظر فيه الكريم أن يُسأل كي يُعطي، وهو ما ينتج عنه أن العطاء قد يكون قليلًا أو كثيرًا وفق ما يتوافر معه وقت البذل والإكرام .

- خطة البحث :

اقتضت طبيعة البحث أن يأتي مُقسَّمًا إلى مقدمة ، وتمهيد ، ثم ثلاثة مباحث ، جاءت مرتبة متناسقة مع الحدث، حيث استقبل إبراهيم ضيوفه الذين وفدوا عليه دون سابق إخطار، ثم ما كان من إعداده الطعام لهم، وأخيرًا وضعه بين أيديهم، ومتابعته لهم حتى يطمئن على راحتهم فجاءت المباحث الثلاثة مرتبطة بهذا التقسيم على النحو التالي :

المبحث الأول : آداب ما قبل الطعام .

المبحث الثاني : آداب إعداد الطعام .

المبحث الثالث : آداب تقديم الطعام .

ثم الخاتمة وفيها أبرز النتائج ، فثبت المصادر والمراجع .

---

(١) الفروق اللغوية ، أبو هلال العسكري ، ١٧١/١، الناشر دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة – مصر

والله تعالى نسأل أن يجعل عملنا خالصًا لوجهه الكريم ، وأن ينفعنا به يوم اللقاء ، إنه سميع مجيب الدعاء .

وصل اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم .

والحمد لله رب العالمين

المبحث الأول : آداب ما قبل الطعام

الأدب الأول : قوله تعالى: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴾

بدأت الآية بهذا الأسلوب الاستفهامي التشويقي ، إثارة للذهن، وبيانًا لقيمة هذا الحديث وتأكيدًا على أنه ليس مما يُتوصل إليه بالعقل، بل لا بد فيه من الوحي؛ إذ إنه إخبار عن أحداث وقعت قبل مولده – صلى الله عليه وسلم – بزمن ، فذكرها له القرآن الكريم من غير زيادة ولا نقصان؛ ولذا ذهب بعض أهل العلم إلى أن "هل" هنا بمعنى "قد" وتأتي للتأكيد والتحقيق ، (والضيف – في الأصل – مصدر : كالزوْر ، والصوم ، يصدق الواحد والجماعة ، قيل : كانوا اثني عشر مَلَكًا ، وقيل : تسعة عاشرهم جبريل، وجعلهم ضيفًا لأنهم في صورة الضيف، حيث أضافهم إبراهيم، أو لأنهم كانوا في حسبانه كذلك) [1] .

وقد وصفت الآية الكريمة ضيف إبراهيم – عليه السلام – بأنهم مكرمون ، وهذا الوصف يدور بين حالتين من الإكرام فهو إما إكرام من الرب ، أو إكرام من العبد ، وقد لفتت الآية الأذهان إلى هذا الإكرام بذلك الأسلوب التساؤلي الراقي ، والذى يحمل معنى التعجب من قصة ضيف إبراهيم – عليه السلام– ، يقول صاحب الظلال :(ويبدأ الحديث عن إبراهيم بالسؤال : ﴿ هل أتاك حديث

(١) البحر المديد ، أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة، ٣٠٢/٧ ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، الطبعة الثانية ، سنة ١٤٢٣هـ ، ٢٠٠٢م .

ضيف إبراهيم المكرمين ﷺ تنويهًا بهذا الحديث، وتهيئة للأذهان، مع وصف ضيف إبراهيم بالمكرمين ؛ إما لأنهم كذلك عند الله ،وإما إشارة إلى إكرام إبراهيم لهم كما ورد في القصة) [١] .

وإذا شهد الله تعالى بإكرامهم فأي شهادة تعدل تلك الشهادة في حق خليل الرحمن إبراهيم – عليه السلام– ؛ ففي ذلك دليل على عظيم جود إبراهيم – عليه السلام – وحسن استقباله لأضيافه حتى وصفهم الله تعالى بصفة " المكرمين " الدالة على ثبوت الإكرام لهم .

أما عن تحقق هذا الوصف لهم فكان من أسبابه ما أورده البيهقي – رحمه الله – في "شعب الإيمان" بسنده عن مجاهد، قال: (ضيف إبراهيم المكرمين قال: خدمته إياهم بنفسه) [٢] ، وهو ما أكده ابن جرير الطبري – رحمه الله – في تفسيره لهذه الآية :(يعني بقوله : (الْمُكْرَمِينَ) إن إبراهيم عليه السلام وسارة خدماهم بأنفسهما ، وقيل: إنما قيل: (الْمُكْرَمِينَ) كما حدثني محمد بن عمرو قال: ثنا أبو عاصم، قال: ثنا عيسى؛ وحدثني الحارث ، قال: ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء ، عن ابن أبي نجيح عن مجاهد قوله: (ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ) قال: أكرمهم إبراهيم، وأمر أهله لهم بالعجل الحنيذ) [٣] .

الأدب الثاني : قوله تعالى : (إذ دخلوا عليه ...)

تبين هذه الآية موقع إبراهيم وموقع ضيوفه ، فإبراهيم في داخل بيته ، وضيوفه في الخارج ثم دخلوا عليه ، وفيها إشارة إلى جوده المعروف وكرمه المشهور ، حتى لا يحتاج ضيوفه إلى الاستئذان أو الحصول على ميعاد مسبق للزيارة ، فالآية تُشعر القارئ بأن باب بيت إبراهيم مفتوح في كل الأوقات لاستقبال الأضياف، فلم تذكر الآية كيف استأذن الضيوف عليه، بل ذكرت دخولهم عليه

---

(١) في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ٣٣/٧، دار الشروق – بيروت، الطبعة السابعة عشر ، سنة ١٤١٢ هـ.

(٢) شعب الإيمان ، أحمد بن الحسين البيهقي أبو بكر، ١٠٢/٧ ، دار الكتب العلمية – بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، سنة ١٤١٠هـ .

(٣) جامع البيان في تأويل القرآن ، محمد بن جرير أبو جعفر الطبري ،٤٢٤/٢٢ ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى ، سنة ١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٠ م .

مباشرة ، ولعله – عليه السلام – كان قد أعد مكانًا خاصًا لاستقبال الضيوف، قريبًا من داره، مفتوح الأبواب، معدًا لاستقبال المسافرين والغرباء ومن انقطعت بهم السبل، وهي عادة ورثناها في بعض مناطق بلادنا العامرة من اتخاذ (المضيفة) المفتوحة دومًا للضيفان والمناسبات ، وهذا فعل أهل الكرم والمروءة ممن جرت عادتهم بالإكرام، وتواترت أخبارهم بين الأنام ، وقد حوت كتب أخبار العرب وتراجم أعلامهم ذكر كثير من سير أجوادهم وأكارمهم ؛ وكيف كانوا يوقدون النار أمام الدور ليستدل عليها عابر الطريق وابن السبيل، فيقدمون عليها ويجلسون على موائد الطعام من غير استئذان، وقد حاز خليل الرحمن إبراهيم – عليه السلام – قصب السبق في هذا الباب ، وصار مضرب المثل في تمام الجود وحسن الإكرام .

الأدب الثالث : قوله تعالى : " إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام ":

وفيها من الأدب: حسن المقابلة بالترحيب الوافي، ورد التحية بأحسن منها، وإظهار البِشر والسرور، والغبطة والحبور بقدوم الضيفان عليه، وقد أشار القرآن الكريم لهذه المعاني حين ذكر تحية الضيوف لإبراهيم، ثم رد إبراهيم التحية لهم، فقد حيوه بما حكاه القرآن الكريم بقولهم :﴿ سلامًا ﴾ وقد وردت في الآية منصوبة لأنها (مصدر سدّ مسدّ الفعل مستغنى به عنه ، وأصله : نسلم عليكم سلامًا) [1]، قال ابن سيده : (﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ * إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ ﴾ قرأ الجمهور: ﴿ فَقَالُواْ سَلَماً ﴾ ، بالنصب على المصدر الساد مسد فعله المستغنى به ، ﴿قال سلام﴾ بالرفع ، وهو مبتدأ محذوف الخبر تقديره : عليكم سلام ، قصد أن يجيبهم بأحسن مما حيوه أخذًا بأدب الله تعالى ، إذ "سلامًا" دعاء، ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف ، أي أمري سلام ، و"سلام" جملة خبرية قد تحصَّل مضمونها ووقع) [2] .

(١) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي أبو القاسم ٤٠٤/٤ ، دار إحياء التراث العربي – بيروت .

(٢) إعراب القرآن ، ابن سيده ، ٧٩/٨

وقال ابن عطية : (وقرأ ابن وثاب ، والنخعي ، وابن جبير وطلحة : قال سِلْم ، بكسر السين وإسكان اللام، والمعنى : نحن سِلْم ، أو أنتم سِلْم) [١] ، وهذا يوضح لنا حسن خلق إبراهيم – عليه السلام – وترحيبه بأضيافه ، حيث أكد لهم معنى السلام والتحية والإكرام ، فجاء رده عليهم بالجملة الاسمية التي تدل على الثبوت والبقاء، بخلاف الجملة الفعلية التي تدل على التغير والتجدد، وهو ما يؤكده الزركشي – رحمه الله – في البرهان في قوله : (هذا الذي ذكرناه من دلالة الاسم على الثبوت والفعل على التجدد والحدوث هو المشهور عند البيانيين) [٢] ، وفى إجابته لهم – عليه السلام – بالجملة الاسمية الدالة على الثبوت وعدم التغير ما يطمئن نفوسهم إلى دوام ألفته وحسن عشرته ولزوم مودته، وهو معنى قول الفخر الرازي : (فلما قالوا: "سلاماً" ، قال: "سلام عليكم مستمر دائم") [٣] الأدب الرابع : قوله تعالى : (قوم منكرون) :

تشير الآية الكريمة إلى درسين متكاملين :

الأول منهما : ما يدل عليه هذا التعبير من أدب إبراهيم مع ضيوفه ، فقد أنكر هيئتهم ؛ وظن غربتهم عن بلده، ومع هذا فلم يواجههم بسوء القول، ولم يخدش كرامتهم بسؤالهم مباشرة، والتصريح أمامهم بإنكاره لهم ، فلم يقل لهم : " أنتم قوم منكرون " بضمير المخاطَب ، بل قال: (قوم منكرون) بصيغة الغائب ، والأرجح كما قال كثير من أهل التفسير: إن قوله هذا لم يكن في مواجهتهم ، بل كان بمعزل عنهم وخفية منهم ؛ وهو ما يتفق مع حسن أدب الأنبياء والمرسلين – صلوات الله تعالى وسلامه عليهم أجمعين – .

ولذا قال أبو حيان : (والذي يناسب حال إبراهيم – عليه الصلاة والسلام – أنه لا يخاطبهم بذلك إذ فيه من عدم الأُنس ما لا يخفى ، بل يظهر أن يكون التقدير : هؤلاء قوم منكرون ، وقال ذلك مع نفسه

(١) البحر المحيط ، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي ، ١٣٧/٨ ، دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان ، سنة ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١ م .

(٢) البرهان في علوم القرآن ، محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي ، ٤/ ٧٢ ، دار إحياء الكتب العربية، بيروت ، لبنان، الطبعة الأولى ، سنة ١٣٧٦ هـ – ١٩٥٧ م .

(٣) مفاتيح الغيب ، فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي، ٢٨ / ١٨٢، دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى سنة ١٤٢١هـ ، ٢٠٠٠ م .

أو لمن كان معه من أتباعه وغلمانه ؛ بحيث لا يسمع ذلك الأضياف) [١] ، ويؤكد أبو السعود ما ذهب إليه أبو حيان ، فقال:(ولعله – عليه الصلاة والسلام – إنما قاله في نفسه من غير أن يشعرهم بذلك ، لا أنه خاطبهم به جهرًا) [٢]

وقول المفسرين في هذا الشأن هو الحق؛ إذ لا يُعقل أن يصدر ذلك القول من إبراهيم في مواجهة ضيوفه مع حرصه الشديد – كما سيبدو من خلال تتبع الآيات – على إكرامهم وحسن وفادتهم، كما أن الآية قد أشارت إلى ذلك بذكر هذا التعجب بصيغة الغائب وعدم إسماعهم له، ولو فعل لقال لهم : " لقد أنكرتكم " .

وفي ذلك درس لنا في حسن استقبال الضيوف، وانتقاء جميل القول وطيب الفعل، وعدم مواجهتهم بما يكرهون ، وإظهار الضيق والكدر ، والتأفف والضجر من قدومهم ، بل إنه من حسن الأدب وتمام الكرم أن يفصل المضيف بين مشاكله الشخصية في بيته، أو في عمله، وبين استقباله لضيوفه ، فبعض الناس قد يواجه مشكلات في عمله أو في بيته ثم إذا جاءه الضيف استقبله بالكدر والضيق الواضح – لا من الضيف – بل مما يعانيه من مشكلات لا دخل للضيف بها، بيد أن هذا مما يُحزن الضيوف، ويحرج مشاعرهم، ويجلب ظن السوء إليهم، وقد يُشعرهم بأنهم أشخاص غير مرغوب في وجودهم ، وفى ذلك من الحرج ما لا يعلمه إلا الله تعالى ، فالعاقل الفطن، الكريم الجواد هو مَن يسارع إلى الفصل بين همومه ومشكلاته وبين استقباله لضيوفه ، وهذا فعل الأكارم ، أهل النخوة والشهامة ، ويكفي في هذا الصدد أن نعلم أن (الأحنف بن قيس أحلم العرب لما سئل: "ممن تعلمت الحلم؟" ، فأجاب: "من قيس بن عاصم؛ رأيته يومًا قاعدًا بفناء داره، محتبيًا بحمائل سيفه، يُحدِّث قومه، إذ أُتِيَ برجل مكتوف وآخر مقتول، فقيل: "هذا ابن أخيك قتل ابنك" ، قال: "فو الله ما حل حبوته، ولا قطع كلامه"، فلما أتمه، التفت إلى ابن أخيه فقال: "يا ابن أخي، بئسما فعلت، أثمت بربك، وقطعت رحمك، وقتلت ابن عمك، ورميت نفسك بسهمك، وقللت عددك"، ثم قال لابن له آخر: "قم يا بني إلى ابن عمك، فحل كتافه، ووار أخاك، وسق

---

(١) البحر المحيط ٨ / ١٠٥ .

(٢) تفسير أبى السعود ، محمد بن محمد العمادي أبو السعود ، ٨ / ١٤٠ ، دار إحياء التراث العربي – بيروت

إلى أمك مائة من الإبل دية ابنها فإنها عربية) [١] ، فأي مصيبة أعظم مما وقع على هذا الرجل من قتل ابن أخيه لأحد بنيه ، بيد أن حلمه، ودماثة خلقه لم تمنعه من أن يُتم حديثه ويبسط وجهه لجلسائه، حتى إذا فرغ منهم أقبل على شأنه، وقضى في أمره ، فلله دره .

أما الدرس الثاني في الآية : ففي قوله: (قوم منكرون) ما يدل من هذا الوصف أن هؤلاء الأضياف ليسوا من أهل محلته، ولا من سكان بلدته، وقد لا يُقابلوه ثانية، ومع ذلك أحسن وفادتهم، وقام على خدمتهم، وقدَّم لهم من الطعام أغلاه، ومن البذل أعلاه، وهو ما يدل على عظيم كرمه ، وأن كرمه ليس محصوراً في إطار معارفه وأصدقائه، بل إنه استقبل هؤلاء الضيوف وأكرمهم وهم منكَرون بالنسبة له فهو لا يعرفهم وهذا – والله – من أجود الجود وأكرم الكرم ، فإن من حصر جوده وكرمه على أقربائه ومعارفه لا يستوي مع من بذل ماله للقريب والبعيد ، والصديق وابن السبيل ، فهذا عين الجود وتمام الإحسان .

وهذا الفعل يخلو من شبهة المجازاة، ورد الجميل، وانتظار المعروف، بل هو كرم خالص لوجه الله تعالى، وبذل المال من أجل مرضاته دون رياء ولا سمعة، ولا يصدق هذا إلا على الأكارم الأجواد وقد امتدح الله تعالى أبا بكر – على قول كثير من أهل العلم – بكثرة الإنفاق والبذل والعطاء لا من أجل رد معروف عليه، أو رغبة في الثناء والمدح ، بل لوجه الله تعالى الكريم فقال تعالى : (وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى * إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى * وَلَسَوْفَ يَرْضَى) [٢] ، يقول صاحب الظلال – رحمه الله – : (هو الذي ينفق ماله ليتطهر بإنفاقه، لا ليرائي به ويستعلي ، ينفقه تطوعًا لا ردًا لجميل أحد ، ولا طلبًا لشكران أحد ، وإنما ابتغاء وجه ربه خالصًا) [٣] ، وقد قال الشوكاني – رحمه الله – (قال المفسرون : نزلت هذه الآيات في أبي بكر الصديق) [٤] .

---

(١) أسد الغابة ، ابن الأثير ، ٤/ ١٣٣ ، دار الفكر، بيوت، لبنان، سنة ١٤٠٩هـ – ١٩٨٩م .

(٢) سورة الليل / الآيتان ١٩ – ٢٠ .

(٣) في ظلال القرآن ، ٨ / ٥٤ .

(٤) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن على الشوكاني ، ٥ / ٦٤٢، دار ابن كثير ، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى ،سنة ١٤١٤هـ.

المبحث الثاني: آداب إعداد الطعام

الأدب الخامس: قوله تعالى: (فراغ ... فجاء) ، (فما لبث أن جاء)

حوت الآية الكريمة جملة من الآداب الراقية ، والإشارات النافعة ، وهو ما يمكن بيانه فيما يلى :

الأول : يدل الفعل الأول (فراغ) على الروغان الذي يعنى الذهاب خفية بحيث لا يكاد يُشعر به .

الثاني : يدل الفعل الثاني (فما لبث) على السرعة والهمة في تقديم الإكرام وإطعام الطعام؛ وهذا – لعمري – دأب الأكارم الأخيار ، يجمعون بين الخفية والخفة في إكرام الضيف كي لا يُشعروه بالحرج، أو يدفعونه للقسم أو يشقون عليه .

قال حاتم الأصم : (العجلة من الشيطان إلا في خمسة فإنها من سنة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : إطعام الضيف، وتجهيز الميت، وتزويج البِكر، وقضاء الدين، والتوبة من الذنب) [1] بخلاف من يقول لأضيافه : انتظروني لحظة ريثما نُعِدُّ الطعام، أو يتركهم منفردين ويغيب عنهم الأوقات الطوال حتى يغلب على ظنهم أنهم قد نزلوا بمضيفهم وهو على غير استعداد لاستقبالهم ، ولا يخفى على عاقل أن الحفاظ على مشاعر الضيف وصون كرامته هو من أكرم الكرم .

الثالث : وهو درس يؤخذ من هذين الفعلين معًا، وأعني به أن إبراهيم – عليه السلام – وقد نزل ضيوفه به فجأة كان على أهبة الاستعداد لاستقبالهم من غير مشقة ولا تكلف ، وأن الطعام كان حاضرًا عند أهله كأنه ينتظر وصولهم ، وما هذا إلا من شدة كرمه، واعتياده على استقبال الأضياف في أي لحظة من ليل أو نهار، فلم يحتج إلى الخروج إلى السوق لشراء ما يقدمه لضيوفه، أو استعارة شيء منه من جيرانه، أو حتى مجرد تأخره على ضيوفه في إعداد الطعام لهم، وهو ما دل عليه استعمال القرآن لحرف (الفاء) مع الفعل (جاء) الدال على السرعة، ولم يقل القرآن: (ثم جاء)

---

(١) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء ، أبو حاتم محمد بن حبان ، ص ١١٧ ، مكتبة السنة المحمدية، الطبعة الثالثة ، سنة ١٣٧٤ هـ .

الدالة على التريث، وكذا استعماله للفعل (فما لبث) في الموضع الثاني ، وكلاهما يدل على السرعة وعدم التأخير .

ذكر صاحب (مغني اللبيب) أن من معاني حرف الفاء ودلالاته دلالة التعقيب : (وهو في كل شيء بحسبه ، ألا ترى أنه يقال: تزوج فلان فولد له؛ إذا لم يكن بينهما إلا مدة الحمل) [١] ، وأما الفعل الناسخ (مالبث) ، فإن لبث تدل على المكث والتأخر ، ففي " معجم اللغة " : أن لبث تعني (أبطأ وتأخّر " ، ومنه : "فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ")[٢] ، ونفيها يدل على عكس معناها، فتحمل بالنفي دلالة العجلة والتسرع .

أما الرابع : ففي الآية الكريمة إشارة بالغة الأهمية ، حيث تدل على ضرورة أن يكون المسلم في حالة استعداد دائم لفعل الخير ، والتشمير له ، حتى إذا حانت فرصة الثواب اقتنصها العبد المتأهب لفعل الخيرات ، فأينما وجد الخير فاز به ، وقد امتدح الله تعالى أمثال هؤلاء الصادقين المسارعين فقال في كتابه الكريم : (إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ) [٣] .

الأدب السادس : قوله تعالى : (فراغ إلى أهله فجاء) ، (فما لبث أن جاء) :

وتشير هذه الآية إلى أدبين :

الأول منهما : في هذين التعبيرين القرآنيين ما يشعران القارئ بمدح الله تعالى لنبيه وخليله إبراهيم – عليه السلام – وأهل بيته معه ، فقد شاركه أهل بيته الكرم وبذل الطعام ، والقيام عليه وحسن إعداده من غير تأفف ولا تضجر ، بل بحبٍ للجود ، ورغبة في الكرم ، وكيف لا ؟ وهم أهل الخليل وآل بيته ؟؟

---

(١) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، جمال الدين أبو محمد عبدالله بن يوسف بن هشام الأنصاري، ١ / ٢١٤ ، دار الفكر ، بيروت – لبنان، الطبعة السادسة ، سنة ١٩٨٥ م .

(٢) معجم اللغة العربية المعاصرة، د أحمد مختار عبد الحميد عمر، ٣ / ١٩٨٨ ، عالم الكتب ، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩ هـ – ٢٠٠٨ م .

(٣) سورة الأنبياء / من الآية ٩٠ .

فإن بعض البيوت قد لا يتحقق فيها مثل هذا الانسجام في روح البذل، فربما كان الرجل جواداً وزوجه بخيلًا، أو العكس ؛ مما قد ينجم عنه حدوث مشكلة في البيت كلما نزل به الأضياف، وقد يصل الخلاف بين الزوجين إلى حد الشجار والخصام الذي قد يصل شيء منه إلى مسامع الأضياف ؛ فيوقعهم في عظيم الحرج ؛ ويدفعهم إلى الاعتذار عما سببوه في بيت مضيفهم – دون قصد منهم – من خلاف وشقاق .

وما أجمل أن يكون الرجل وأهل بيته عونًا لبعضهما على حسن الاستضافة وكرم الضيافة ، وما تخلق أهل البيت بهذا الأدب إلا تأثرًا بكرم رب البيت، وتخلقًا بما عودهم عليه وغرسه فيهم .

أما الأدب الثاني فهو: قيام إبراهيم – عليه السلام – بخدمة ضيوفه بنفسه؛ وهذا أبلغ في الإكرام، وأدل على الشرف والسؤدد ، قال علي بن الحسين : " من تمام المروءة خدمة الرجل ضيفه كما خدمهم أبونا إبراهيم الخليل بنفسه وأهله" [(١)]، فلم يأمر لهم بالطعام ، أو حمله لهم خادم أو أَمَة ، بل أحضره بنفسه – مع عظيم مكانته عند الله ومنزلته عند الناس – لأنه يعرف أن حق إكرام الضيف عليه واجب من غير منٍ ولا أذى ، فلم يأنف أو يستكبر من خدمة الأضياف ، وهذا فعل ذي الشرف والمروءة ، ولو كان ذا خدم وعيال ، قال لقمان الحكيم : (أربع لا ينبغي لأحد أن يأنف منهن وإن كان شريفاً أو أميراً : قيامه من محله لأبيه، وخدمته لضيفه، وقيامه على فرسه، وخدمته للعالِم) [(٢)] ، وقد كثر في كلام العرب قولهم: (خادم القوم سيدهم) .

الأدب السابع : قوله تعالى : (فجاء بعجل سمين) ، (جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ) :

وهذان الموضعان يدلان على كرم الضيافة فقد وصف الموضع الأول العجل بهيئته ، أما الثاني فقد وصف العجل بكيفيته، على ما سيأتي بيانه :

---

(١) غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب ، محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي ، ١١٧/٢ ، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى، سنة ١٤١٧ هـ ، ١٩٩٦ م .

(٢) البيان والتبيين ، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، ص ٤٨، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان .

حيث قدَّم إبراهيم – عليه السلام – لضيوفه عجلًا ، وهو صغير البقر على ما هو معروف ، وهو من أطيب اللحم طعمًا، وأسرعه طهوًا ، ولم يقدم لهم ثورًا هرماً ، أو بقرة مسنَّة ، قاسية اللحم ، عديمة النفع ، بل اختار لإطعام ضيوفه أكرم ماله وأنفس ما عنده وهو العجل الذي يتخذه الناس للتربية ؛ ويأملون كبره ؛ لزيادة لحمه، وعِظَم ثمنه إذا ما بيع ، وما هذا إلا لاستيلاء الكرم على نفسه حتى هانت عليها كرائم ماله ، ثم إن هذا العجل ليس عجلًا هزيلًا ولا مريضًا، بل وصفه مَن خَلَقَه بأنه سمين ، فجمع بين صغر السن ليكون أسرع طهوًا ، وبين السمنة ليكون ألذ طعماً .

(قال قتادة: كان عامة مال إبراهيم البقر، واختاره لهم سميناً زيادة في إكرامهم) [١] ، ليكون أسوة وقدوة لمن أراد أن ينال البر فلينفق من طيبات رزقه ،قال الله تعالى :(لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) [٢].

أما عن هيئة طهوه فقد اختار إبراهيم لضيوفه أشهى طريقة، وأجودها صحة، وألذها مذاقًا وهو ما عبر عنه قوله تعالى : (فجاء بعجل حنيذ) قال ابن منظور فى اللسان : (والحنيذ : هو الذي يقطرُ ماؤه وقد شوي، وهذا أَحسن ما قيل فيه، و قال الفراء: الحَنْيذُ ما حَفَرْتَ له في الأَرض ثم غممته، قال :وهو من فعل أَهل البادية معروف، وهو محنوذ في الأَصل، وقد حُنِذَ فهو مَحْنُوذٌ ،كما قيل: طبيخ ومطبوخ) [٣]، فهو لون من ألوان الطهي العربي الشهي المعروف لأهل البوادي، وتستعمل فيه الحجارة الحارة للشواء، قال ابن قتيبة في "غريب القرآن": ("فجاء بعجل حنيذ" أي: مَشْوِيّ، يقال: حَنَذْتُ الجمل: إذا شويته في خَدٍّ من الأرض بِالرَّضَفِ، وهي الحجارة الْمُحْمَاة) [٤].

وفى ذلك دليل على أن إبراهيم – عليه السلام – وأهل بيته قد استفرغوا كل جهدهم في حسن إعداد الطعام وتهيئته على أشهى طريقة وألذ مذاق ؛ لينال إعجاب الضيوف ويشبع جوعتهم ، فضلاً

---

(١) تفسير الجامع لأحكام القرآن، ٤٦/١٧ .

(٢) سورة آل عمران / من الآية ٩٣ .

(٣) لسان العرب ، ابن منظور ، ٤٨٤/٣، دار صادر ، بيروت– لبنان، الطبعة: الثالثة ، سنة ١٤١٤ هـ.

(٤) غريب القرآن ، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ،٢٠٥/١، دار الكتب العلمية ، سنة ١٣٩٨هـ ،١٩٧٨م .

عما فيه من الإشارة إلى دسم اللحم وسمن العجل فإن من معاني الحنيذ : الشواء الذى يقطر دسمه قال الفخر الرازي :(الحنيذ الذي يقطر دسمه، يقال : حنذت الفرس إذا ألقيت عليه الجل حتى تقطر عرقاً)[1] ، ولن يقطر الدسم إلا من فرط سمنه، واكتناز لحمه وشحمه ، ومن ثمَّ كانت صفة الطهي (حنيذ) – التي عبرت عنها سورة هود – تأكيدًا لصفة العجل (سمين) التي وردت في سورة الذاريات .

وفى هذا الصدد يجب ألا نغفل ملمحًا ثالثًا في هذه النقطة قد أشار إليها القرآن الكريم بقوله تعالى : (فجاء بعجل) ، حيث أشارت الآية الكريمة إلى تناهي كرم إبراهيم – عليه السلام – ورقي خلقه في إكرام ضيوفه ؛حيث قدَّم لهم العجل كاملاً ، ولم يقدم لهم منه جزءًا كالكتف أو الفخذ ، ويحبس لأهله ولنفسه باقي الأجزاء، وربما كان المحبوس للأهل أطيب من المقدَّم إلى الضيوف، لكن جود إبراهيم – عليه السلام – أبى إلا أن يقدم لضيوفه العجل كاملًا غير منقوص ؛ ليتخيروا من أطايب لحمه ما يريدون ، وفيه دلالة على الرغبة التامة في الجود والإكرام ، وإيثاره الضيوف على نفسه ، بل وأهل بيته .

المبحث الثالث : آداب تقديم الطعام

الأدب الثامن : قوله تعالى: (فقربه إليهم) :

ويمكن أن نستنبط من هذه الآية أدبين :

الأول منهما : في دلالة التقريب، وهو – لعمر الله – من ألطف الأدب والجود ، فلم ينقلهم من مكان جلستهم لمكان إطعامهم، بل حرصًا منه – عليه السلام – على تمام راحتهم؛ حرّك الطعام إليهم، ولم يحركهم إلى الطعام ، وفى ذلك إشارة إلى سعة مكان جلوسهم ، وحسن إعداد الموضع لاستقبال الضيوف، وتقديم الطعام دونما حاجة لإزعاجهم بكثرة تنقلهم من موضع إلى آخر؛ مما قد يمثل لهم حرجًا، أو إحساسًا بثقلهم، وتكلف صاحب البيت لهم .

---

(١) مفاتيح الغيب ٢١/١٨ .

فضلًا عن أن انتقالهم من مكانٍ إلى آخر؛ قد يؤدي إلى اختلاف أماكنهم الجديدة عن أماكنهم التي كانوا عليها قبل الانتقال؛ مما قد يضايق بعضًا منهم ، (لأن من قدَّم الطعام إلى قوم يكون كل واحد مستقرًا في مقره، لا يختلف عليه المكان ، فإن نقلهم إلى مكان الطعام ربما يحصل هناك اختلاف جلوس ؛ فيُقرب الأدنى ويُضيَّق على الأعلى) [١].

أما الأدب الثاني الذي تلفت الآية الأنظار إليه : فهو: كيفية وضع لطعام ليكون في متناول أيدي كل الجالسين ، حتى لا يخص ببعض أصناف الطعام قومًا دون قوم ؛ فإن ذلك مما يوغر الصدور، ويشكل حرجًا للضيفان ، أما إبراهيم – عليه السلام – فقد قرَّب الطعام إليهم جميعًا ؛ حتى يسهل عليهم تناوله بيسر دون مشقة ولا تكلف، ولم يخص بعضهم بصنف من الطعام دون بعض .

وقد وجدنا اليوم في بعض مجتمعات المسلمين من يخص بعض الحضور – في ولائم الطعام – بموضع أرحب، وطعام أشهى، واهتمام أكبر، وهو ما يشكل ضيقاً عند بقية الحضور؛ حيث يشعرون بالتفرقة في المعاملة، والدونية في المكانة ، ولو نظر أمثال هؤلاء إلى هدى الأنبياء والمرسلين ؛ لوجدوهم يأكلون مع أصحابهم ، وبين أضيافهم ، على بساط واحد ، في هيئة واحدة ، وطعام واحد دون أن يُميزوا أنفسهم – مع استحقاقهم وعلو شأنهم ورفعة مكانتهم – عند الله تعالى ثم عند الناس فكان ذلك دلالة على تواضعهم وغرسًا لخلق التواضع في نفوس المؤمنين .

الأدب التاسع : قوله تعالى : (قال ألا تأكلون) :

وهذا أسلوب عرض جمع بين الحث من جانب ، واللطف والرقة من جانب آخر ، حيث ينبغي على المضيف أن يلحظ إقبال ضيوفه على طعامه، أو امتناعهم عنه لمانع الحرج أو المهابة أو غير ذلك من الموانع .

وفى حض المضيف ضيوفه على تناول الطعام دليل على حرصه على الإطعام ، وتقديم الطعام بطيب نفس ، فما قدَّم المضيف الطعام لضيوفه إلا رغبة منه في أن يأكلوا منه حتى الشبع؛ ولذا

---

(١) المرجع السابق ١٨٤/٢٨ .

حرص إبراهيم – عليه السلام – على تفقدهم ليطمئن إلى إقبالهم على الطعام، فلما رأى أنهم قد كفوا أيديهم عنه ، عرض عليهم الأكل عرضًا رقيقًا ، فقال :(ألا تأكلون) ،وهذا خير أسلوب وألينه على القلوب، وهو أولى من أن يأمرهم بفعل الأمر بصيغة : (كلوا) ، أو بأي صيغة أخرى قد تسبب حرجًا للضيوف ،كقوله لهم : (لماذا لا تأكلون ؟؟؟ ، ولمن أعددنا الطعام إذاً ؟؟؟، أو قد تعبنا في إعداد الطعام لكم ثم تمتنعون عنه) ، أو نحو ذلك من أساليب العرض أو الأمر الثقيلة على السمع والقلب معًا ، ولذا قال السفاريني : (وهذا عرض وتلطف في القول ، وهو أحسن من قوله : كلوا ومدوا أيديكم ونحوهما ، وهذا مما يعلم الناس بعقولهم حسنه ولطفه ، ولهذا يقولون : بسم الله ، أو ألا تتصدقوا ، أو ألا تجبروا ، وما ألطف ما اعتاده أهل بلادنا – عمَّرها الله تعالى بالإسلام والتقوى – من قولهم للضيفان إذا قدَّموا إليهم الطعام : " تفضلوا " أي علينا بأكل طعامنا ، وهذا في غاية اللطف والحسن)[1] .

وهنا مسألة يحسن التنبيه عليها ألا وهى أن الأصل في الضيف ألا يحتاج إلى إذن من رب البيت لتناول طعامه إذا قدَّمه إليه ، فمجرد تقديم الطعام ووضعه بين يدي الضيف صار ذلك بمثابة الإذن له بالأكل منه ، فما وضِع الطعام إلا ليأكل الضيف منه ، ولكن إبراهيم – عليه السلام – قد اضطر إلى التأكيد عليهم – قولاً – بعد أن أذن لهم – فعلًا – بالأكل ، وذلك بعدما قدَّم الطعام لهم ، بعدما وجدهم يقبضون أيديهم ، ممتنعين عن تناول الطعام .

ففي قوله – عليه السلام – : (ألا تأكلون) من جمال العرض وأدب الضيافة ومراعاة حال الضيوف وتفقد حاجتهم ، والرغبة في إكرامهم وتناولهم الطعام ما يصلح أن يكون قدوة وأسوة لأهل الضيافة في ديار الإسلام .

الأدب العاشر : قوله تعالى :(فأوجس منهم خيفة) ، (فأقبلت امرأته فى صرة فقالت عجوز عقيم) :

---

(١) غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب، ١١٦/٢ .

يدل على قرب وقوف امرأة إبراهيم من مكان وجود الأضياف؛ حتى أنها سمعت كلامهم الذي أسروا به إلى إبراهيم – عليه السلام – ، وهو ما يُنبئ عن وقوفها على أهبة الاستعداد لتلقى أية تعليمات تصدر من زوجها من أجل راحة أضيافهما، وحرصها على القرب من مكان خدمتهم ضمانًا لسرعة إجابة مطالبهم .

ولعل إصغاءها للسمع يدخل في باب تشوقها لسماع كلمات الرضا – من الضيوف – عن مستوى خدمتهم، وتمام راحتهم، وطيب طعامهم، وهو ما ينعكس – إيجابًا – على نفسيتها، ويُشعرها بالرضا عن نفسها لما قدمته لضيوف إبراهيم ، وهو فعل الزوجة الحريصة على نيل رضا زوجها، الباذلة كل ما في وسعها للوصول إلى راحة الضيوف ونيل رضاهم .

فالله در هذا البيت الكريم وأهله، الذين اعتادوا الكرم ، وحرصوا عليه، وبذلوا من أجله كرائم أموالهم، وراحة أبدانهم، فاستحقت قصة خدمتهم لأضيافهم أن يُخلد القرآن ذكرها إلى يوم الدين، لتكون درسًا ومثلًا – في حُسن الضيافة وبذل المعروف – للأولين والآخرين .

والحمد لله رب العالمين.

خاتمة البحث:

الحمد لله الذي يقول الحق وهو يهدي السبيل ، والصلاة والسلام على نبينا محمد خاتم النبيين وإمام المرسلين ، جدد الله به رسالة السماء ، وأحيا ببعثته سنة الأنبياء ، ونشر بدعوته آيات الهداية ، وأتم به مكارم الأخلاق ، وعلى آله وأصحابه ، الذين فقههم الله في دينه ، فدعوا إلى سبيل ربهم بالحكمة والموعظة الحسنة ، فهدى الله بهم العباد ، وفتح على أيديهم البلاد ، وجعلهم أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ، وبعد :

فقد عالج هذا البحث أبرز الآداب التي وردت في قصة ضيف إبراهيم – عليه وعلى نبينا الصلاة والتسليم – والتي خلدها القرآن الكريم بالذكر ، لتكون نبراسًا متبعًا ، ومنهجًا نبويًا ، ورثناه عن شريعة أبينا إبراهيم حنيفًا .

وكان من نتائج هذا البحث :

- وجوب مدارسة هذه الآداب الراقية التي وردت في ثنايا القصص القرآني ، ونشرها بين الناشئة ؛ لينغرس في نفوسهم جمال هذا الدين ، ورقي أخلاق تابعيه إن تمسكوا بما فيه .
- رد السلام بمثله ، أو بأحسن منه ، حيث رد إبراهيم – عليه السلام – على ضيوفه السلام بأحسن مما حيوه به، فإن تحيتهم باسم منصوب متضمن لجملة فعلية تقديره: سلمنا عليك سلامًا، أما تحية إبراهيم لهم فكانت باسم مرفوع متضمن لجملة اسمية تقديره: " سلام دائم، أو ثابت، أو مستقر عليكم "، ولا ريب أن الجملة الاسمية تقتضي الثبوت واللزوم، بيد أن الفعلية تقتضي التجدد والحدوث، ومن ثم كانت تحية إبراهيم أكمل وأحسن.
- من آداب الضيافة سرعة القرى بنشاط وخفاء، دون إشعار الضيف بذلك ، فإن ذلك مما يحرجه ويثقل عليه .
- يتحقق الجود بإكرام الضيف بأجود ما عند المضيف، كما فعل إبراهيم – عليه السلام – بتقديم العجل السمين لهم .
- من المروءة أن يقوم الرجل بنفسه على خدمة أضيافه – مهما عظمت مكانته – فإن ذلك مما يكسبه التواضع ويزيده رفعة عند الله تعالى وعند الناس .
- من آداب الضيافة أن يحرص المضيف على راحة ضيوفه، وتهيئة المكان المناسب لجلستهم، وعدم إكثار تنقلهم من مكانٍ لآخر، فإن ذلك مما يشق عليهم ، ويسبب لهم إرباكًا.
- حث المضيف ضيوفه على تناول الطعام أمر يؤكد تأصل الكرم في نفسه، ورغبته الصادقة في إكرامهم ، مع الحرص على أن يكون هذا الحث بألطف عبارة وأرق أسلوب .
- مشاركة الرجلَ أهلُهُ فى العناية بالضيف والاهتمام به خير دليل على تعاون الأسرة المسلمة في تحقيق مكارم الأخلاق لنيل رضا الله تعالى .
- أن الضيف إذا وضع الطعام بين يديه، فالواجب عليه أن يأكل ، دون تكلف ، فإن عدم الأكل مما يخالف أدب الضيافة ، ويوقع المضيف في الحرج، وقد يشعره ذلك بالخوف والوجل مما يكنه

الضيف في نفسه، ويجعله ينشغل بمحاولة استنتاج سبب امتناع ضيوفه عن أكل طعامه، وقد يدخل الشيطان عليه من هذا الباب ، فيوحش صدره، ويوقع الضيق في نفسه من إخوانه .

- أن أكل الطعام فيه دلالة الأمان، فمن أكل طعام قوم كان لزامًا عليه ألا يصل إليهم منه شيء يكرهونه، فإن إبراهيم أوجس في نفسه خيفة لما رأى امتناع القوم عن تناول طعامه الذي بين أيديهم، وفى ذلك دلالة على أن الطعام له حرمة، ومن أكل مع إخوانه من طعامهم فمن العار عليه أن يخونهم، أو يضرهم، وكيف يفعل وقد امتزج طعامهم بلحمه ودمه، فصار حافظًا لعهدهم، مراعيًا ذمتهم .

ثبت المصادر والمراجع :

- الاستذكار الجامع لمذاهب فقهاء الأمصار، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر ، دار الوعى ، سنة ١٩٩٣ م .
- أسد الغابة ، ابن الأثير ، دار الفكر، بيوت، لبنان، سنة ١٤٠٩هـ – ١٩٨٩م .
- البحر المحيط ، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي ، دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان ، سنة ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١ م .
- البحر المديد ، أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، الطبعة الثانية ، سنة ١٤٢٣هـ ، ٢٠٠٢م .
- البرهان في علوم القرآن ، محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي ، دار إحياء الكتب العربية، بيروت ، لبنان، الطبعة الأولى ، سنة ١٣٧٦ هـ – ١٩٥٧ م .
- البيان والتبيين ، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان
- التبصرة فى أصول الفقه ، إبراهيم بن علي بن يوسف الفيروز آبادي الشيرازي أبو إسحاق دار الفكر ، دمشق – سوريا ، الطبعة الأولى ، سنة ١٤٠٣هـ .
- التعريفات ، علي بن محمد الجرجاني، دار الكتاب العربي، بيروت ، الطبعة الأولى ، سنة ١٤٠٥ هـ

- تفسير أبى السعود ، محمد بن محمد العمادي أبو السعود ،دار إحياء التراث العربي – بيروت
- جامع البيان في تأويل القرآن ، محمد بن جرير أبو جعفر الطبري ،مؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى ، سنة ١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٠ م .
- الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي، دار الكتب المصرية ، القاهرة، الطبعة الثانية، سنة ١٣٨٤هـ ،١٩٦٤ م .
- روضة العقلاء ونزهة الفضلاء ، أبو حاتم محمد بن حبان ، مكتبة السنة المحمدية، الطبعة الثالثة ، سنة ١٣٧٤ هـ .
- شعب الإيمان ، أحمد بن الحسين البيهقي أبو بكر، دار الكتب العلمية – بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، سنة ١٤١٠هـ .
- صحيح البخاري ، محمد بن إسماعيل البخاري، ،كتاب : " الأدب" ، باب: " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره ".
- غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب ، محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي ، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى، سنة ١٤١٧ هـ ، ١٩٩٦ م .
- غريب القرآن ، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ،دار الكتب العلمية ، سنة ١٣٩٨هـ ،١٩٧٨م .
- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن على الشوكاني ، دار ابن كثير ، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى ،سنة ١٤١٤هـ.
- الفروق اللغوية ، أبو هلال العسكري ، الناشر دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر .
- في ظلال القرآن ، سيد قطب، دار الشروق – بيروت، الطبعة السابعة عشر ، سنة ١٤١٢هـ.
- القاموس الفقهي لغة واصطلاحا ، سعدي أبو جيب ، دار الفكر، دمشق – سورية ، الطبعة الثانية ١٤٠٨ هـ ، ١٩٨٨ م .

- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي أبو القاسم ، دار إحياء التراث العربي – بيروت .
- لسان العرب ، ابن منظور ، دار صادر ، بيروت– لبنان، الطبعة: الثالثة ، سنة ١٤١٤هـ.
- معجم اللغة العربية المعاصرة، د أحمد مختار عبد الحميد عمر، عالم الكتب ، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩ هـ – ٢٠٠٨ م .
- المعجم الوسيط ، إبراهيم مصطفى ـ أحمد الزيات وآخرون ، دار الدعوة ، القاهرة .
- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، جمال الدين أبو محمد عبدالله بن يوسف بن هشام الأنصاري، دار الفكر ، بيروت – لبنان، الطبعة السادسة ، سنة ١٩٨٥ م .
- مفاتيح الغيب ، فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي، دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى سنة ١٤٢١هـ ، ٢٠٠٠ م .
- النهاية فى غريب الأثر ، أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، المكتبة العلمية – بيروت ، ١٣٩٩هـ.